الأحلام فى نظر فرويد

بقلم

صلاح العرب عبد الجواد

مدرس التربية وعلم النفس بمعهد المعلمين الابتدائى بالمنصوره

لعبت الأحلام دوراً خطيراً فى تاريخ الإنسانية حتى قيل إنها من ضمن الظواهر التى جعلت الإنسان البدائى يدرك أن له نفساً .

ولقد اهتم الإنسان بدراستها منذ القدم. وقد حاول الأقدمون تفسيرها و بيان مغزاها.

ولقد اختلف إيمان الناس بالأحلام ، فمنهم من يرى أن أحلامه صادقة ؛ أى أنه إذا حلم بكذا فلا بد أن يحدث هذا الشىء . أى أن هذا البعض يعطى للأحلام قدرة على التنبؤ بالغيب .

ولقد بلغت درجة إيمان هذا البعض بها أنه اتخذها هادياً فى حياته ، وما حديث « الاستخارة » بغريب عن أذهاننا .

ويؤمن بعض العامة بأن من بين هؤلاء الأشخاص ذوى الأحلام الصادقة من يستطيع أن يحلم لا لنفسه بل لغيره . فكثير من الطلبة يطلبون من أقاربهم أن يحلموا لهم بنتيجة الامتحان

ومن الناس من يؤمن بأن أحلامه عكسية أى أنه إذا حلم بكذا فيحدث عكس ما يحلم به .

وهناك آخرون لا يؤمنون بالأحلام ولا بقدرتها على التنبؤ .

ولقد ارتبطت الأحلام بالدين حتى أننا نرى فى القرآن الكريم سورة موضوعها من كان لديه القدرة على تأويل الأحلام وتفسير المستقبل الذى تتضمنه .

ونحن إذا استعرضنا آراء العامة من الأحلام نستطيع أن نستخلص كثيراً من المشاكل التى كانت موضوعاً لدراسة العلماء .

ولا يهتم الشخص العادى فى موضوع الأحلام إلا بالمشكلتين الآتيين :

١ – هل الأحلام تنبؤات بالمستقبل ؟ أى هل المستقبل المجهول أم الماضى

وحوادثه هو الذى يلعب دوراً فى الأحلام ؟ وإذا كان الماضى فهل هو الماضى القريب الذى يستطيع أن يتذكره الشخص بسهولة ويسر أم أنه الماضى البعيد المجهول .

٢ — وهل الأحلام ذاتية أى أنها لا تهتم إلا بالحوادث والمشاكل الخاصة بالشخص النائم ، أم أنها غيرية تتضمن مشاكلا تخص الغير .

أما العلماء فقد اهتموا بدراسة الأحلام وبحثوا فى أسباب حدوثها وفى بيان ماهية ووظيفة النشاط النفسى الذى تمثله .

ونحن فى بحثنا هذا سنتناول بالشرح وجهة نظر فرويد فى هذا الموضوع كما عبر عنها فى كتابه « The Interpretation of Dreams » مستعينين فى ذلك بما كتبه أرنست جونز فى كتابه « Papers on Psycho-Analysis » وما كتبه صمويل لوى فى كتابه « Psychological & Biological Foundations of Dream Interpretation » تناول فرويد فى هذا الكتاب وجهات النظر المختلفة التى أدلى بها العلماء عن الأحلام وناقشها وبين قصور هذه النظريات عن توضيح طبيعة وقيمة النشاط النفسى الذى يشمله الحلم . وإليه يرجع الفضل فى إظهار قيمة المادة النفسية التى تحتويها الأحلام .

وترجع عظمة فرويد إلى تقريره أن للحلم مضمونين : مضمون صريح ظاهرى وهو تلك الصور المختلفة التى نراها فى الحلم والتى نسردها فى قولنا بأنى حلمت بـ . . . ثم مضمون كامن خفى ويتضمن أفكاراً لا يمكن الوصول إليها إلا باصطناع منهج التحليل النفسى أى منهج التداعى الحر .

ولقد اتخذ فرويد من هذه التفرقة بين هذين النوعين من مضمون الحلم أساساً عارض به كثيراً من الآراء التى قيلت عن أسباب الأحلام ومصادر صورها وعن طبيعة النشاط النفسى فى الحلم وعن الغرض الذى يحققه الحلم .

وبهذه التفرقة أظهر فرويد أن هذه النظريات والآراء إنما كانت تدور حول المضمون الظاهرى للحلم فقط ، ولذلك عجزت عن أن تقدم لنا نظرية صحيحة شاملة للأحلام .

والآن لنتناول هذا المضمون الصريح للأحلام ولنبحث فى الصور التى يتضمنها وفى مصادر تلك الصور وفى قيمة الدور الذى تلعبه فى عملية الحلم .

وإذا استعرضنا أحلامنا وجدنا أنها تشمل الآتى (وهو ما يكون المضمون الصريح للحلم) .

١ ــ صور لحوادث وخبرات حدثت فى النهار السابق للحلم وبعض هذه الصور عن حوادث تافهة وبعضها عن حوادث هامة .

٢ ــ صور لحوادث حدثت فى الماضى ومنها لحوادث حدثت منذ عهد الطفولة .

٣ ــ صور غريبة لحوادث ولمناظر ولأشخاص ولأسماء لم يرها الشخص .

٤ ــ حالات وجدانية مثل سرور أو حزن أو قلق إلخ .

أسباب الأحلام :

ولقد ناقش فرويد النظريات التى أراد بها أصحابها توضيح أسباب الأحلام وهى فى الحقيقة لا توضح سوى المضمون الظاهرى .

ولقد عدد فرويد هذه النظريات كالآتى :

١ ــ مثيرات حسية خارجية .

٢ ــ مثيرات حسية داخلية .

٣ ــ مثيرات عضوية داخلية .

٤ ــ مثيرات نفسية .

١ ــ نظرية المثيرات الحسية الخارجية :

يرى أصحاب هذه النظرية أن المثيرات الحسية الخارجية التى تؤثر على النائم تؤدى إلى ظهور الأحلام ، فمثلا إذا نام شخص وسقطت عليه أشعة الشمس فأحس بحرارتها فإن الإحساس بالحرارة يدفعه إلى أن يحلم بأنه فى جهنم مثلا .

ناقش فرويد هذه النظرية وقرر أن لهذه المثيرات أثراً فى ظهور بعض صور الحلم ولكن الدور الذى تلعبه المثيرات الحسية دور محدود . ولا تستطيع هذه المثيرات أن تكون سبباً فى إنتاج هذه الصور التى نراها إلا تحت شروط معينة (Freud, p. 44) مما يؤكد أنها ليست الواقع الحقيقى للحلم وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ إذا كان المثير الحسى هو الدافع الحقيقى والعلة الحقيقية للحلم لوجب أن تتفق وتتوحد الأحلام الخاصة بالمثير الحسى الواحد . وهذا ما لا نجده ، فالصور التى تتضمنها الأحلام الخاصة بالمثير الحسى الواحد تختلف باختلاف الأشخاص

بل تختلف باختلاف ظروف الشخص الواحد .

٢ — ثم إن الصور التى يتضمنها الحلم ليست صوراً إدراكية صحيحة ومطابقة لحقيقة الإحساس ، بل هى صور مغايرة لها ، فلا يحلم الإنسان بأنه يحس بشىء معين بل يحلم بصور أخرى .

ولا يقتصر الاختلاف والتغاير على الناحية الإدراكية للإحساس والمثير بل يشمل الناحية الوجدانية .

فقد حلم بعض الأشخاص — أثناء غارة جوية مفزعة — بأنهم يقومون برحلة مريحة بالقطار يسمعون فيها أصوات القطر المختلفة . (Jones, p. 239)

وينتهى فرويد من هذا إلى القول بأن المثير الحسى ليس هو الدافع الحقيقى للحلم وأن المثيرات الحسية ليست بكافية لتفسير كل صور الأحلام . (Freud, p. 45)

وأنه إذا أمكننا أن نرجع بعض صور المضمون الصريح إلى المثيرات الحسية الخارجية فإن قدرة هذه المثيرات على إنتاج بعض صور الأحلام تخضع لعوامل مختلفة تؤثر وتغير من طبيعة الإحساس وتحدد صوره مما يجعل هذه المثيرات مثيرات عرضية .

ب — نظرية المثيرات الحسية والعضوية الداخلية :

لقد اعتقد كثيرون بأن المثيرات الحسية وخاصة الاضطرابات الداخلية هى السبب فى حدوث الأحلام ومن الواضح أن هذه النظرية ظهرت نتيجة الدراسات البيولوجية للأحلام (Freud, p. 57)

ينقد فرويد هذا الرأى لأنه لا يفسر وجود الأحلام عند الأصحاء . فالحلم يحدث فى حالة الصحة الجيدة كما يحدث فى حالة المرض . وليس من اللازم أن يمرض الإنسان حتى تصبح أعضاؤه مثيرات للأحلام .

ويوجد نوع آخر من المثيرات الحسية وهى الحالات العضوية الخاصة بالجوع والعطش وامتلاء المثانة فإن هذه الحالات العضوية فى رأيهم تؤدى إلى ظهور أحلام ويظهر هذا فى المثل العامى (الجعان يحلم بسوق العيش) .

يرى فرويد أن هذه المثيرات العضوية — كالمثيرات الحسية الخارجية — لا تستطيع بمفردها أن توجد حلما بل هى عامل من ضمن العوامل التى تؤدى إلى ظهور بعض

صور الحلم ، وتحديد هذه الصور لا يتوقف على هذه المثيرات العضوية بل يتوقف على عوامل أخرى كما سيتضح فيما بعد

جـ — نظرية المثيرات النفسية :

وهذه المثيرات النفسية على نوعين :

١ — النوع الأول :

وأصحابه يرون أنه من المشاهد أنه إذا فكر الإنسان فى موضوع ما — وهو فى الفراش — قبل النوم فإنه يحلم بما فكر فيه . ولقد قام أحد العلماء Selberen بتجارب أظهرت أن الأفكار التى يستعرضها الإنسان فى ذهنه وهو فى الفراش قبل النوم تظهر مرة أخرى فى صور الحلم .

ويرى فرويد أن هذا النوع من الأحلام ليست أحلاماً بالمعنى الحقيقى بل هى أحلام نعاس لأنها تحدث فى فترة الانتقال من اليقظة إلى النوم ولذلك فهى تتضمن حالة الشخص الفكرية فى تلك اللحظات .

٢ — النوع الثانى :

يرى أصحاب هذا الرأى أن الأعمال الهامة التى قام بها الإنسان بالنهار والتجارب والحوادث التى مر بها فى النهار السابق للحلم تدفعه إلى أن يحلم بها وخاصة تلك الحوادث التى اهتم بها ومال إليها فى يقظته .

يرى فرويد أن من الصحيح أن كثيراً من الأحلام تتضمن صوراً عن حوادث مر بها الفرد فى اليوم السابق للحلم ، إلا أن القول بأن التجارب الهامة التى مر بها الفرد فى اليقظة تؤدى إلى وجود الحلم أمر غير صحيح ذلك لأن هناك كثيراً من الأحلام تتضمن صوراً عن حوادث تافهة .

وشمول الحلم على آثار من هذه الحوادث بنوعيها يبين قيمة الدور الذى تلعبه فى الحلم كما سيتضح فيما بعد .

قيمة هذه المثيرات :

يرى فرويد أن هذه المثيرات المختلفة ليست هى العلة الحقيقية والدافع الحقيقى للحلم فهى علل عرضية . وقيمتها تبدو فيما تقدمه من إحساسات أو آثار حسية

(نظرية المثيرات الخارجية والداخلية) أو آثار نفسية (نظرية مثيرات اليوم السابق للحلم) يستخدمها الدافع الحقيقى ليكون الحلم .

فهذه المثيرات المختلفة — فى رأى فرويد — تتيح فرصة للدافع الحقيقى للحلم لأن يختار من الإحساسات والآثار الحسية والنفسية التى تقدمها ما يخدم غرض تمثيله وتمثيل ما يحتويه هذا الدافع من أفكار . (Freud, p. 232) هذا من جهة ومن جهةأخرى ليست كل حادثة وليس كل مثير بقادر علىأن يكونمصدراً لصور يستمد منه الدافع الحقيقى للحلم الصور التى تتضمنها الأحلام .

فهناك اختيار للحوادث التى يستمد منها الدافع للحلم الصور التى يتضمنها المضمون الصريح . فيختار الدافع الحقيقى للحلم صور حوادث أو تجارب حديثة سواء أكانت تافهة أو هامة إذا كانت هذه الحوادث مرتبطة بتجارب ذات قيمة نفسية . فتظهر صور هذه التجارب الحديثة فى الحلم كتعبير تظهر به هذه التجارب ذات الدلالة النفسية الهامة .

أى أن هذه الصور تعتبر تمثيلا غير مباشر لهذه التجارب الهامة .

وبهذا يعلل فرويد وجود آثار خاصة باليوم السابق فى كل حلم تقريباً .

وكذلك الحال فى صور الحوادث القديمة التافهة فى الحلم . فإن الدافع الحقيقى للحلم يستغل هذه الصور عن هذه الحوادث الماضية فى تكوين الحلم وذلك لأن الأثر النفسى الخاص بحوادث أخرى هامة قد انتقل إليها وتحول إليها لعلاقة بينها .

وبهذه المناسبة يشير فرويد إلى صعوبة تقرير صدق صور هذه الحوادث الماضية أى إلى صعوبة بيان انطباق الصور على الحوادث نفسها .

قيمة صور المضمون الصريح للحلم :

يرى فرويد أن هذه الصور هى فى حقيقة الأمر تعبير مجازى أورمزى عن محتويات أخرى خفية . ولذلك يقرر أنه إذا أردنا أن نفهم الأحلام فيجب علينا أن تعتبر صور الحلم تعبيراً تنكرياً عن محتويات مستترة أو تعبيراً محرفاً عن مضمون مستتر .

فمثلا رؤية حجرة غريبة فى الحلم .

هذه الحجرة تعبير وتصوير محرف لعدة حجرات ، وصورة هذه الحجرة صورة أخذت من عدة حجرات سبق رؤيتها وجردت من معالمها ، ثم امتزج

بعضها مع بعض حتى أوجدت هذه الصورة الجديدة . وسنبين فيما بعد طبيعة هذه العمليات المحرفة التى عن طريقها يمثل المضمون الصريح المضمون المستتر ..

وليس أدل على صدق القول بأن صور الأحلام إنما هى صور رمزية لمعان مستترة من التجربة التى قام بها الدكتور Schroter فقد استخدم التنويم المغناطيسى على فتاة وأوحى لها بأنها ستحلم بأنها تقوم بأداء عملية جنسية مع شخص فكانت نتيجة الحلم كالآتى ويلاحظ أن كل شخص له خبرة جنسية يستطيع أن يفهم المعانى التى تدل عليها وترمز لها الألفاظ التى تحتها خط .

« أنى حلمت بأنى كنت فى انتظار صديق لأحتفل معه بعيد ميلاده فأحضر معه زجاجة خمر لفها فى معطفه ثم طلب منى أن أحضر كوباً ومسك هو بالزجاجة ومسكت بالكوب وعند ما صب الخمر فى الكوب خفت فسقط الكوب وانكسر وانسكبت الخمر على السجادة فانزعجت فطمأننى وطلب منى كوباً أخر وصب فيه نقطاً باحتراس .

والآن لنتكلم عن المضمون الخفى المستتر للحلم :

عند ما درس بعض الأشخاص صور الأحلام ووجودا أن الأحلام تتضمن صوراً عن حوادث تافهة حكموا على الأحلام بالتفاهة .

ويبدأ فرويد مناقشة هذا الرأى .

ويرى أن محتويات هذا المضمون المستتر ذات دلالة نفسية هامة فمادة الحلم مادة نفسية هامة (Jones, p. 247) ولقد اكتسبت الأفكار التى يحتويها هذا المضمون أهميتها نظراً لارتباطها بميول شخصية هامة .

أما عن التفاهة التى تبدو فى صور الحلم ، فإنه يرى أنه ليس هناك تآزر أو توافق بين أهمية المحتويات الظاهرة وأهمية المحتويات الكامنة .

فعنصر أو فكرة غير هامة فى المضمون الصريح قد تمثل أكثر العناصر شدة وأهمية فى المضمون المستتر فمثلا تستخدم الأفكار الهامة التى تتضمنها المضمون المستتر تجارب وآثار النهار السابق للحلم القليلة القيمة لكى تمثلها فى المضمون الصريح .

ولقد لاحظ فرويد أن الاختلاف بين محتويات المضمون الصريح وبين محتويات المضمون الخفى يزداد اتساعاً كلما تقدم بالإنسان العمر . ويقل إلى درجة كبيرة فى الأطفال إلى ما قبل السن الرابعة حتى أنه يمكن القول بأن محتويات

المضمون المستتر عند الأطفال قبل هذه السن تظهر بدون تحريف وتنكر كبيرين . بحيث يمكن اعتبار أن المضمون الصريح للحلم هو نفس المضمون المستتر (Lowy, p. 143 - Jones, p. 248)

ويرى فرويد أن للمضمون المستتر ولمحتوياته صفات أخرى بجوار صفة الأهمية التى سبق ذكرها .

ومن ضمن الصفات أنه لا شعورى محتوياته مكبوتة لعدم انسجامها مع حياة اليقظة ولكونها غير مقبولة من الذات الشعورية (Jones, p. 261)

وهذا المضمون المستتر ذو أصل طفلى وما حياة الإنسان وأحلامه إلا نتيجة لهذه الاتجاهات الطفلية الأولى .

ويغلب على هذا المضمون المستتر الناحية الجنسية ولا يمنع هذا من وجود بعض الرغبات غير الجنسية (Jones, p. 262)

رأينا فيما سبق أن للحلم مضمونين والآن لنتساءل :

لماذا كان المضمون الصريح تعبيراً مجازياً عن المضمون الخفى ؟ ولماذا لا تخرج محتويات المضمون المستتر سافرة ؟

ولماذا تظهر المحتويات الكامنة على هيئة صور ؟ وأخيراً ما هى صلة المحتويات المستترة بالحلم ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نفهم طبيعة النشاط النفسى فى الحلم .

إذا كانت الحياة النفسية عند فرويد تخضع للعلاقات الديناميكية للثلاث قوى : الذات ، الذات العليا ، والهو . فإن هذا الثالوث يسيطر على الحياة النفسية فى الحلم .

ولقد استطاع فرويد أن يكشف الغطاء عن الدور الذى تلعبه كل قوة فى الحلم .

لقد لاحظ فرويد أثناء تحليله للمرضى أن هناك علاقة وثيقة بين درجة غموض وعدم وضوح إدراك وعدم تذكر بعض أجزاء الحلم الذى يسرده المريض وبين صعوبة ممارسة التداعى الحر من جانبه . وأنه فى اللحظة التى ينتصر المريض فيها على هذه الصعوبة الداخلية فإنه يتذكر أجزاء الحلم المنسية مما جعل فرويد يستنتج أن المقاومة التى يجابهها المريض فى التداعى هى نفسها التى تؤدى إلى نسيان أجزاء

الحلم . وبذلك استنتج فرويد الدور الذى يلعبه الرقيب النفسى فى الحلم .

وبتحليله المادة النفسية التى يتضمنها الجزء المنسى من الحلم وجد أنها هى نفس المادة التى تكون الأفكار التى وجد المريض صعوبة فى استدعائها أثناء التداعى الحر . وبذلك استنتج فرويد الدور الذى تلعبه الرغبات المكبوتة اللاشعورية فى فى الحلم . وهذا الاكتشاف جعله يقرر أن الحلم من الحلول المرضية كما سيتضح فيما بعد .

والآن لنتحدث عن الدور الذى تلعبه كل من هذه القوى الثلاث .

١ — الذات العليا أو الرقيب :

لما كانت الذات العليا خلقية فلهذا كان من وظائفها منع الرغبات اللاشعورية من الظهور ولذلك كان على هذه الرغبات لكى تظهر من أن تحرف مظهرها حتى يخدع الرقيب . وعلى هذا يمكن اعتبار عملية التنكر والتحريف فى الحلم للرغبات اللاشعورية من آثار الرقابة .

ومن آثار الرقابة أيضاً اختلاف سرد الإنسان لحلمه فى الأوقات المختلفة (Jones,p.244) فمثلا سرد الحلم بعد اليقظة مباشرة يختلف عن سرده بعد انقضاء مدة من الزمن .

هذا الاختلاف فى السرد لا يرجع إلى صعوبة عملية الاستدعاء العادية بل نجده يقع فى أجزاء معينة من الحلم وهى النقط الضعيفة التنكرر أى الخاصة بالرغبات اللاشعورية — التى تحتاج إلى تنكر أشد من التنكر الأول نظراً لقوة الرقيب فى اليقظة . وعلى ذلك فالتحوير الذى يحدث فى سرد الحلم وصياغته يرجع إلى أثر الرقيب . ومن آثار الرقابة أيضاً الشك الذى يشعر به الشخص فى أجزاء معينة فى الحلم .

وكذلك نسيان الحلم كله أو أجزاء منه . فكما قلنا من قبل أن فرويد لاحظ أثناء التحليل النفسى أن المريض يتذكر فجأة ما نسيه فى الحلم . ولقد اكتشف أن الأمر المنسى هو ما كانت الرقابة تمنع ظهوره .

ويلعب الرقيب دوراً خطيراً إذا ما فقد السيطرة على الرغبات اللاشعورية . فقد يحدث فى بعض الأحلام أن تظهر الرغبات اللاشعورية سافرة فى المضمون

الظاهرى للحلم قبل أن ينشط الرقيب ويمنعها . ولهذا يقوم الرقيب بعمل يعتبر عقاباً وتأديباً .

فقد يحدث أن يحلم الشخص بموت أخيه وتكون هذه الصورة هى جوهر المضمون الكامن للحلم أى الرغبة اللاشعورية فى موت أخيه . ولهذا نجد الرقيب يقوم بنوع من العقاب . فتحدث حالة وجدانية كحزن أو قلق فيشعر الحالم بحزن فيبكى وقد ينتهى به الأمر إلى أن يستيقظ . وبهذا نستطيع فهم الأحلام التى يصاحبها خوف أو قلق فهى أحلام تأديبية مرتبطة بميل نحو رغبة مكبوتة (Freud, p. 514) هذا هو دور الرقيب .

والآن لنتحدث عن دور الذات فى الأحلام :

ينتاب الذات الشعورية فى النوم ضعف كما يضعف نشاط العمليات الفكرية المختلفة .

هذا الضعف هو فى الحقيقة نكوص حتى قيل إن نشاط الذات فى الحلم أشبه بالمراحل البدائية لتطور الحياة الفكرية . وأكبر مثل لذلك أنه بينما فى اليقظة يكون النشاط الفكرى عن طريق الأفكار فإنه فى الحلم يكون عن طريق الصور . فالذات فى الحلم تعجز عن استخدام الأفكار وتلجأ إلى الصور .

ويرى فرويد (Freud, p. 505) أن النكوص الذى تسلكه الذات هو نكوص مثلث الجوانب . فأولا هناك نكوص نحو موضوعات اللاشعور وذلك لأن السيادة فى الحلم تكون للاشعور ولموضوعاته . ثم هناك نكوص زمنى وذلك لأن النشاط النفسى يتجه إلى أقدم المكنونات النفسية فى حياة الشخص . وأخيراً نكوص شكلى فإن الذات تتجه فى طريقة تعبيرها نحو التعبيرات البدائية . ولهذا يمكن القول بأن الحلم ما هو إلا فعل نكوص إلى العلاقات الأولى للذات .

فهو إحياء لطفولة الشخص وإحياء لدوافعه التى كانت سائدة فى وقت ما وإحياء لطرق التعبير الأولى البدائية عن هذه الدوافع .

ولا بد أن توجد الذات فى الحلم . ولكن لا يستلزم وجود الذات فى الحلم أن يرى الإنسان نفسه فى الحلم . فكثيراً ما يحلم الفرد حلما يظهر فيه أشخاص عدة وهو ليس من بينهم . والحقيقة أن ذاته تكون متقمصة إحدى هذه الشخصيات لعلاقة بينها .

ويمكن الكشف عن هذه الشخصية التى تختفى وراءها الذات إذا ما شعر الحالم بالحالة الانفعالية التى تنتاب إحدى هذه الشخصيات . فإذا ما شعرت مثلا فى الحلم بحالة الغضب التى تنتاب شخصاً فإن ذاتى تكون متقمصة ذاك الشخص فهو يمثل ذاتى (Freud, p. 309)

وكثيراً ما نجد ذاتنا وأشخاصنا فى الحلم وإذا حللنا الموقف الذى تظهر فيه نجد أن شخصاً ما قد تقمص صورتنا وهو مستتر وراء صورتنا لعلاقة بيننا وبينه .

وبالعكس أيضاً قد نحلم حلما فيه عدة أشخاص وإذا حللنا هؤلاء الأشخاص ومواقفهم نجدهم ممثلين لذاتنا فى مختلف الصور .

وينتهى فرويد من هذا إلى القول بأن الذات لابد وإن توجد فى الحلم فنحن نحلم بما يخصنا لا بما يخص التغير . فالأحلام ذاتية بل أنانية . (Freud, p. 308)

دور الهو فى الحلم :

يرى فرويد أن الرغبات المكبوتة اللاشعورية هى الدافع الأول والأساس لإيجاد الحلم . فالحلم فى نظره تحقيق وإشباع خيالى لهذه الرغبات اللاشعورية.

ويجب أن نلاحظ أن هذه الرغبات اللاشعورية التى يحققها الحلم هى رغبات ماضية قديمة وليست رغبات حاضرة .

ولكن ليس معنى هذا القول أن فرويد يقصر الحلم على إشباع الرغبات اللاشعورية فقط . فالحقيقة أنه يمكن تجزئة هذه القضية إلى جزئين .

الجزء الأول إن الحلم تحقيق رغبة .

والجزء الثانى إن الرغبة لاشعورية .

يرى فرويد أن الجزء الأول صادق دائماً ويظهر صدقه باستعراض وتحليل أحلام الأطفال والكبار .

ولقد وصل إلى صدق هذا الجزء من هذه القضية بعد دراسات متعددة خاصة بأحلام الأطفال والبالغين العصابيين . (Freud, p. 130)

وإشباع الرغبات وتحقيقها فى الحلم يمكن أن يكون ظاهراً ويمكن أن يكون مستتراً ويتضح صدقه إذا استخدمنا منهج التداعى الحر. (Lowy, p. 144)

فالأحلام التى يظهر فيها الإشباع سافراً هى أحلام الأطفال قبل سن الرابعة وأحلام الأكل والشرب والتبول تبعاً للإثارة البيولوجية التى تحدث أثناء النوم .

فهذه الأحلام هى تحقيق رغبات لا تتعارض مع الذات العليا، وتحقيق هذه الرغبات يؤدى إلى استمرار النوم والمثل العامى (الجعان يحلم بسوق العيش) يبين صدق هذا القول .

وبتقرير فرويد صدق هذا الجزء شرح أول وظيفة للأحلام فى نظره وهى وظيفة حراسة النوم عن طريق تحقيق وإشباع الرغبات التى تستثار أثناء النوم .

ومما يؤكد هذه الوظيفة التحليل الذى نقوم به للأحلام التى نرجعها عادة إلى المؤثرات الحسية .

فإن التعديل والتغير فى طبيعة إدراكنا للتأثيرات الحسية والذى ينتهى إلى أن يتضمن الحلم صوراً حسية ليست مطابقة للإدراك، هذا التعديل والتغيير يرى فيه فرويد الوظيفة الأولى للحلم — وظيفة حراسة النوم — وبجوار هذه الوظيفة الأولى يكتشف فرويد الوظيفة الثانية للحلم وهى وظيفة إشباع الرغبات وتختلف درجة إشباع الرغبات فى الحلم تبعاً لنوع الرغبة .

فمثلا حلم الأكل يشبع إلى حد كبير (فى الخيال) الرغبة فى الأكل وذلك لأن العنصر البصرى يلعب دوراً كبيراً فى إشباع هذا الدافع البيولوجى .

أما إشباع الرغبة فى التبول فإنها لا تتحقق فى الخيال بمثل هذه الدرجة .

ويختلف نوع إشباع الرغبة . فقد يكون إشباعاً سافراً وذلك إذا كانت هذه الرغبات لا تتعارض مع الذات العليا . وهناك نوع آخر من إشباع الرغبات لا يظهر سافراً فى الحلم وهو إشباع الرغبات اللاشعورية .

ويضرب فرويد مثلا لفتاة حامت بأن ابن شقيقتها الوحيد قد مات وطلبت منه بيان الرغبة التى يحققها الحلم . فهل كان لديها الرغبة فى موت الطفل ؟ ولقد استطاع فرويد بالتحليل أن يبين الرغبة التى دفعت إلى إيجاد الحلم وأن يبين الرغبة التى يشبعها الحلم .

فإن شقيقة الفتاة كان لها طفلان وعند ما مات أولهما ذهبت الفتاة إلى منزل أختها لكى تواسيها وهناك رأت رجلا أعجبت به وتمنت الزواج منه ثم حدثت عقبات منعت الفتاة من إشباع رغبتها هذه . ثم مرت الأيام ونسيت الفتاة رغبتها فى الزواج بالرجل . حتى كانت ليلة الحلم إذ قرأت فى الصحف خبراً عن هذا الرجل وكفتاة عاقلة صرفت النظر عن التفكير فيه وعن رغبتها القديمة فى الزواج منه وفى رؤيتها له . وموضوع الحلم أن هذه الرغبة أرادت الإشباع فكان الحلم بوفاة الطفل

الوحيد حتى يكون مناسبة وفرصة لأن ترى الفتاة رجلها .

والرغبات اللاشعورية ليست بدائاً جنسية ولو أنها دائماً ما تكون جنسية .

ودرجة إشباع هذه الرغبات أكبر بكثير من درجات إشباع الرغبات الأخرى .

ويرى فرويد أن السبب فى أن معظم الأحلام نتيجة للرغبات الجنسية اللاشعورية هو ما يعانيه إشباع الغريزة الجنسية من كبح وكبت .

فمثلا بينما يستطيع الفرد أن يمارس نشاط غريزة ما يجريه عدة مرات كل يوم فإنه لا يستطيع أن يمارس هذه العمليات الجنسية بمثل هذا القدر . فمثلا يستطيع الفرد أن يأكل كل يوم خمس مرات ولكن ليست لديه هذه القدرة بالنسبة للعمليات الجنسية كل يوم .

هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا أردنا ممارسة العمليات الجنسية فلا بد أن نخضع لأوضاع المجتمع وتقاليده . وهو الزواج — وهذا ما لا يوجد فى إشباع الغرائز الأخرى .

رأينا أن الأحلام تتضمن إشباع رغبات شعورية ولاشعورية ويبحث فرويد صلة هذه الرغبات بالأحلام فيرى أن الرغبات اللاشعورية هى الدافع الحقيقى للحلم والحلم الذى هو نتيجة الدافع اللاشعورى يستغل الرغبات الشعورية فيتضمنها .

ولذلك كانت الرغبة القادرة على إيجاد الحلم هى رغبة لاشعورية أو رغبة شعورية متصلة ومرتبطة برغبة لاشعورية .

ميكانيزم الأحلام :

عرفنا فيما سبق المادة النفسية التى تتكون منها الأحلام والآن سوف نرى العمليات التى بها يعبر عن هذه المحتويات الكامنة فى صور المضمون الصريح .

١ — التكثيف :

لما كان المضمون الصريح للحلم هو تعبير رمزى عن المضمون المستتر فلذلك يكون كل عنصر من هذا المضمون الصريح ممثلا لعنصر أو أكثر من عناصر المضمون المستتر .

وبالتكثيف يمثل عنصر فى المضمون الصريح عناصر مختلفة فى المضمون المستتر . ولذلك كانت المعانى النفسية التى نحصل عليها بتحليل الحلم أغنى وأوسع من

المعنى الظاهرى فى المضمون الصريح (Jones, p. 221)

وإلى هذا الميكانيزم ترجع غرابة بعض الأحلام لأنها عملية لا نألفها فى حياة اليقظة .

ويحدث التكثيف بطريقتين :

١ — عن طريق مزج معالم وملامح مختلفة لأشخاص أو أسماء أو مناظر فى تركيب جديد يظهر فى المضمون الصريح . وهذا التأليف الجديد (سواء أكان شخصاً أو غيره) يرمز إلى هذه العناصر .

٢ — عن طريق إظهار المعالم المشتركة بين العناصر المختلفة فى المضمون المستتر وإهمال ما يميز كلا منها وما يخص كلا منها . وتظهر صوره فى المضمون الصريح متضمنة هذه المعالم المشتركة .

ووجه التشابه الأساسى الذى عن طريقه يتكون هذا الامتزاج والتأليف إنما يكمن فى المضمون المستتر ولهذا يعتبر التشابه السطحى فى الشكل والذى يظهر فى المضمون الصريح إنما هو رمز لتشابه مستتر وليس من اللازم أن يكون التشابه صحيحاً ووجوداً بالفعل . فيكفى أن تكون هناك رغبة فى وجود مثل هذا التشابه بين الأشخاص .

فمثلا وجد شخصان يحملان عاطفة حقد أو حسد للفرد فإنه قد يظهر فى المضمون الصريح شخص أو شكل مركب من الإثنين مثلا ذو ملامح مشتركة من الاثنين .

وقد يحدث بواسطة التكثيف نوع من الاتحاد وذلك عن طريق التقمص . فيحدث أن يتحد عنصران من عناصر المضمون المستتر فى وحدة فمثلا يظهر فى المضمون الصريح شخص يسلك سلوكاً خاصاً بشخص آخر أو يصطنع مواقف وحركات وملابسات أشخاص آخرين .

وقصارى القول ، إن التكثيف عملية تظهر أوجه التشابه والاتفاق بل الوحدة بين عنصرين أو أكثر من عناصر المضمون المستتر ويظهر هذا كله فى صور المضمون الصريح .

٢ — العملية الثانية Displacement الإحلال :

وبهذه العملية تتمثل محتويات المضمون المستتر فى المضمون الصريح .

فمثلا شخص أو شيء أو فكرة فى المضمون المستتر قد يمثلها فى المضمون الصريح شيء منه أو جزء منه وبهذا يكون الجزء قد حل محل الكل ومثله وتوجد مثل هذه العملية فى الأدب وتعرف بالتعبيرات المجازية .

وبهذا الميكانيزم نستطيع أن نفهم مشكلة تفاهة الأحلام .

فقد وجد أنه ليس هناك تلازم وإتفاق بين الكثافة النفسية أو القيمة النفسية لعنصر معين فى المضمون الظاهرى وبين كثافة وقيمة العناصر المرتبطة فى المضمون الخفى .

فمثلا قد يمثل العنصر الهام الذى يكون محور المضمون الصريح أقل العناصر قيمة وشدة فى المضمون المستتر . (Jones, p. 223) والعكس صحيح . فعنصر تافه فى المضمون الصريح قد يمثل أكثر العناصر كثافة وشدة .

ولهذا نرى فى الحلم كثيراً من الانفعالات تصاحب عناصر ليست لها مثل هذه القيمة الانفعالية .

فمثلا قد نشعر فى الحلم بخوف شديد عند ما نرى شيئاً عادياً لا يثير هذا الخوف وبالعكس قد لا نشعر بخوف عند ما نرى شيئاً يستلزم مثل هذا الانفعال .

فهذا الإحلال والتغير فى القيم الوجدانية إنما هو نتيجة لهذا المكانيزم .

وهو ظاهرة شائعة فى العصاب حيث نرى ارتباط ميل عظيم أو انفعال شديد بفكرة غير هامة نتيجة لأن الأثر الوجدانى الخاص بفكرة هامة قد انتقل إليها .

وبهذا الميكانيزم نستطيع أن نفهم السبب الذى من أجله توجد بكثرة آثار اليوم السابق فى الأحلام فهذه الآثار لما لها من قيمة ضئيلة تستخدم فى الحلم لتمثيل عناصر أكثر أهمية لا تنتقل إليها أهميتها .

٣ — ميكانيزم التجسيم Dramatization

وهو عملية تصوير الأفكار المجردة بصورة حسية مجسمة ولذلك يعتبر هذا التصوير تمثيل محسوس لأفكارنا ولتوضيح ذلك نقول إن فكرة السفر تظهر فى الحلم فى صور ذهاب الشخص إلى المحطة وركوبه القطار إلخ . . . ولهذا كانت معظم محتويات المضمون الصريح صوراً .

وعملية التجسيم تتميز بها الأحلام عن أحلام اليقظة وعن الأعراض العصابية .

والتجسيم نوع من النكوص الذى ينتاب الذات لانجذاب النشاط النفسى

نحو المدركات الحسية الأولى أو نحو ذكرى الحوادث النفسية الطفلية التى تتميز باحتفاظها بطابعها البصرى الأول . وتخضع كل العمليات الذهنية للتجسيم .

ويفرق فرويد بين العمليات الفكرية المنطقية التى تحدث فى المضمون الصريح مثل التعليل والتناقض وبين مثيلاتها فى المضمون المستتر .

فيرى أن هذه العمليات المنطقية فى المضمون الصريح هى من طبيعة خادعة وغالباً ما تكون من آثار النهار السابق .

أما العمليات المنطقية فى المضمون المستتر فإنما لا تظهر إطلاقاً فى الحلم ولكن يظهر أطراف هذه العلاقات المنطقية فى صور الحلم ومن ثم يستطيع المحلل استنتاجها .

فمثلا علاقة السببية تدرك فى تتابع صور الحلم وتعاقبها (Freud, p. 302) وهذا التعاقب أو التتابع إما تتابع وتعاقب أجزاء الحلم الواحد ، أو تتابع الأحلام فى الليلة الواحدة ، أو تعاقب — هو فى الحقيقة — تغير فجائى فى صور كان ينقلب شخص ما إلى شخص آخر .

لهذا يرى فرويد أن هذه العلاقة تدرك إذا حللنا حلما ووجدنا أنه يتكون من جزءين .

جزء يعتبر تمهيدى وهو هنا العلة وجزء يعتبر أصلى وهو هنا النتيجة .

أما قانون التناقض فإنه لا يوجد فى الأحلام فالأحلام لها الحرية فى تمثيل عنصر بنقيضه . ولذلك كان من الصعب الكشف عن هل هذا العنصر يمثل شيئاً أو يمثل نقيض هذا الشىء .

وعلاقات التشابه والاتفاق والتضمن أى التداخل تظهر كلها فى صورة اتحاد عناصر مثل التقمص أو التركيب الذى رأيناه فى التكثيف .

وقد ارى القول لا يحدث تفكير منطقى فى الحلم بصورة صحيحة . وكل العمليات المنطقية المختلفة من حكم وحوار وشروط وبراهين إنما هى خاصة بالمضمون المستتر فى الحلم (Freud, p. 299) ولذلك لا توجد سافرة فى المضمون الصريح للحلم .

وكقاعدة عامة تحذف هذه العمليات ولكن المادة المكونة لأفكار الحلم هى التى تظهر فيه بدون العلاقات المنطقية التى بينها .

٤ — الرمزية :

وهو نوع آخر من النكوص الذى يسود النشاط النفسى فى الحلم .

ويرى فرويد أن هناك علاقة وثيقة بين رموز الأحلام والرموز فى اللغة . ووجد أيضاً أن هناك رموزاً ذات ثبات وصدق عالميين يقابلها الإنسان فى جميع الأحلام (Freud, p. 335) وهذه الرموز العالمية تمثل الوظائف الجنسية وتبدو هذا فى اللغة الدارجة والأمثال العامية والأساطير كالحرث والملابس .

ويجب التفرقة بين الصور التى هى نتيجة التجسيم وبين الصور الخاصة بهذه العملية .

فالتجسيم يقصد به التعبير عن المجرد بالمحسوس وعن الأفكار والمدركات العقلية بالصور المحسوسة .

أما الرمزية فهى التعبير عن المحسوسات بصور محسوسة ولذلك معانى الصور نتيجة التجسيم هى معانى ذاتية أما معانى الصور نتيجة الرمزية فهى معانى عامة .

٥ — صياغة الحلم :

هذه العملية الأخيرة تختلف عن العمليات السابقة فى قربها من العمليات العقلية الشعورية .

ولإيضاح ذلك نقول إنه عند ما يحاول الشخص فى يقظته أن يفهم الحلم ويدركه فإنه يعامله معاملة أى مدرك أى أن عقله الشعورى يحاول تمثيله وهضمه حتى يقدم لنا قصة الحلم .

ولهذا يحدث فى سرد الحلم تنظيم أو محاولات لتنظيمه ولصياغته حتى تتلاءم وتنسجم مع العمليات الشعورية .

ولهذا يوجد دائماً ميل نفسى لتحريف الحلم وهو تحريف ينشأ عن محاولة فهم الحلم . ثم أن الحلم يخضع لتعديل آخر أثناء سرده فى أوقات متباعدة وهذا التحوير الجديد لا يقع إلا فى أضعف الأجزاء تنكراً . وهو يؤدى إلى تقوية التنكر . ولذلك تعتبر هذه العملية من آثار الرقابة .

صلاح العرب عبد الجواد

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

يشرف على إصدارها الأستاذ الدكتور يوسف مراد

ظهر منها :

علم النفس الفردى : أصوله وتطبيقه	تأليف الدكتور إسحق رمزى الثمن ٥٠ قرشاً
مشكلة السلوك السيكوباتى	تأليف الدكتور صبرى جرجس الثمن ٤٥ قرشاً
مبادئ علم النفس العام	تأليف الدكتور يوسف مراد الثمن ٥٠ قرشاً
مدارس علم النفس المعاصرة	تأليف روبرت ودورث وترجمة الأستاذ كمال دسوقى . الثمن ٥٠ قرشاً
الأسس النفسية للإبداع الفنى	تأليف الأستاذ مصطفى سويف الثمن ٥٠ قرشا

الاشتراكات فى مجلة علم النفس ابتداء من عدد يونيو ١٩٥٢ (السنة الثامنة) ترسل مباشرة إلى دار المعارف ٥ شارع مسبيرو — مصر

الاشتراك السنوى فى مصر والسودان ٥٠ قرشاً وفى الخارج ٧٠ قرشاً أو ١٤ شلن .

أما فيما يختص بالمقالات فترسل إلى إدارة تحرير المجلة : الدكتور يوسف مراد : شارع الأميرة فادية — مدينة الأوقاف — منطقة هـ — العجوزة مصر